المقتطف

الجزء الثامن من المجلد الثلاثين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٥ — الموافق ٢٩ جماد اول سنة ١٣٢٣

الشيخ محمد عبده

مفتي الديار المصرية

تمهيد

كأن المنايا تبتغي في خيارنا ... لها ترةً او تهتدي بدليلِ

شهدنا قبيل كتابة هذه السطور مشهداً قلما يُرَى مثلهُ في هذه العاصمة لتقدمهُ كتيبة من فرسان البوليس وشرذمة من مشاتهِ تسيران في صفين على جانبي الطريق ووراءهما نعش مجلل بشيلان الكشمير يحملهُ طلبة العلم في الجامع الازهر ووراءهُ قاضي مصر وشيخ الجامع الازهر والعلماء وقضاة المحاكم الشرعية ووراءهم خلق كثير من المشايخ والمجاورين ثم مستشارو محكمة الاستئناف الاهلية وقضاة المحاكم الابتدائية ورجال النيابة وكلهم بالاوشحة الرسمية ورجال المحاماة بطيالسهم السوداء ثم ناظر الحقانية وقائد جيش الاحتلال ومستشار الداخلية ووكيل الحقانية ووكيل حكومة السودان ومدير مصلحة الصحة واكابر ضباط الجيش المصري من الانكليز والمصريين وكبار موظفي دواوين الحكومة ووكيل محافظة مصر وحكمدارها ورئيس مجلس شورى القوانين واعضاؤهُ وفضلاء العاصمة وادباؤها واعيانها على اختلاف طبقاتهم وكثيرون من وجهاء الارياف . وشهد اهالي الاسكندرية مشهداً مثلهُ في الصباح سار فيهِ نائب قنصل الخديوي وسكرتير الوكالة البريطانية ووكلاء الداخلية والمالية والخارجية والمعارف العمومية وجمهور العلماء والوجهاء وهم يمثلون الحكومة المصرية والحكومة الانكليزية في مصر والاسكندرية والقطر المصري كلهُ . فان مفتي الديار المصرية العلاَّمة المحقق الشيخ محمد عبده قضى وهو في الاسكندرية بداء اعيا الاطباء فحمل

منها الى العاصمة واحتفلت الحكومة المصرية بتشييع جنازته احتفالاً رسمياً فلما صار لاحد من اعاظم امرائها ووزرائها . ولقد عمّ الاسى عليه الديار المصرية وفقدهُ اهل الاسلام في مشارق الارض ومغاربها واسف عليه غيرهم من الذين يودّون الخير لهذه البلاد ونزع الضغائن المتولدة من اختلاف الاديان لما لهُ من الايادي البيضاء والمساعي المشكورة في انارة الاذهان ودفع الوساوس فحق ان يقال فيه

عمّت فواضلهُ نعمّ مصابهُ فالناس فيه كلهم مأجورُ
والناس مأتمهم عليه واحد في كل دار رنّة وزفيرُ

وهو عصامي رقى الى هذه المنزلة بجدهِ وتوقُّد ذهنه وحسن نظرهِ في العواقب واقدامهِ على عظائم الامور . فانهُ جدّ حتى اكتسب العلوم اللغوية والدينية وامتلك ناصية الانشاء ونبغ حتى صار من اكتب كتّاب العصر ومن اعلم العلماء في العلوم اللغوية والدينية وما جرى مجراها . ثم تعلّم اللغة الفرنسوية لكي يطّلع على العلوم العصرية والافكار الحديثة ولا سيما ما تعلق منها بالفلسفة الاجتماعية . وترجم كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر في التعليم لكي يستعين بآرائهِ الفلسفية على اصلاح المدارس المصرية . وكان ذكي الفؤاد بالطبع قوي الحجة حسن المحاضرة لا يخاف في الحق لومة لائم ولا يتهيّب الكبراء والعظماء لمجرّد ما هم فيه او ما ادركوهُ من رفعة المقام فاستطاع ان يكون علَماً يهتدي بنور علمهِ المحافظون الذين لا يروقهم الّا ما جرى عليه المتقدمون كاكثر العلماء وطلبة العلوم الدينية واللغوية وممن جرى مجراهم لانهُ كان ثقة فيهم . وعضداً قوياً لابناء هذا العصر الذين استناروا بالعلوم الحديثة والآراء الجديدة . ومرشداً صادقاً للذين يطلبون الاستنارة بها والسير في سبيلها . وسيفاً صقيلاً على اهل البدع الذين قيّدوا ابناء المشرق بقيود تظلم العقل عن التبصر وتعلّ الايادي عن العمل . وملجأً امينا للذين يودّون نزع اسباب الشقاق التي اودت بطوائف المشرق وليس لها اصل راسخ بين اصول الدين ولا هي مما تقتضيه مطالب العمران

ثم انهُ كان عالي الهمّة شديد الغيرة يستسهل الصعاب ويذلل المشاق سعياً الى خير امتهِ وارتقائها فكنت تراهُ تارةً مدرّساً يعلّم شبانها وتارةً مؤلفاً يؤلف الكتب او يشرحها وينشرها لتنوير اذهانها . وتارةً مفسراً قواعد الدين تفسيراً يقبلهُ العقل المستنير وتصلح بهِ شؤون الامم ويتطبق على مطالب الزمان . وتارةً منظماً للمدارس المصرية القديمة حتى تجاري الحديثة في انتظامها وفي ما يُعلَّم فيها من العلوم القديمة والحديثة . وتارةً رئيساً للجمعيات الخيرية الساعية

في اعانة الفقراء واصلاح شؤونهم وتعليم ابنائهم . وتارة مقداماً للذين يشيرون على الحكومة في مجلس شورائها بفعل ما يصلح القطر وينفع اهاليهُ . وتارةً مباحثاً ومناقشاً لاقناع رفاقهِ في ذلك المجلس بالمشروعات النافعة للبلاد واهلها وجمع كلمتهم على تأييد الحكومة وشد ازرها على الذين يعارضونها في مقاصدها إما لغرض في نفوسهم او لان وجه النفع الذي تتوخاهُ لم يجلِ لهم . وتارةً مجادلاً يدافع عن الدين بادلة مأخوذة من علوم المتأخرين التي جدّت بعد عهد المتقدمين . وتارةً مبيّناً بالحجج القاطعة ان الدين لا يمنع الارتقاء والاخذ باسباب العمران بل يحث عليهما ومظهراً الشوائب والبدع التي دخلت فيهِ فاضرت اهلهُ وهي ليست منهُ في شيء بل يتبرأ منها وينهى عنها . وتارة صانع خير وفاعل بر وجامع اموال لاغاثة المنكوبين بالنيران والاوبئة وغيرها من الرزايا يقصد المصابين بنفسهِ ويوزع عليهم الاموال بيدهِ . وتارةً متصدراً في الاندية العلمية والحفلات الادبية يبيّن مزايا العلم وفوائد التربية ويشرح الاسباب التي رقّت اهالي اوربا واوصلتهم الى ما وصلوا اليهِ من العزة والمنعة وينعش الافئدة بذكر ما كان عليهِ اسلاف الشرقيين وما يمكن ان يصيروا هم اليهِ اذا تعاونوا وتناصروا واخذوا باسباب الارتقاء . وتارةً جالساً في مجالس الانس والصفاء يزين الوحشة والجفاء من بين الوطنيين والاجانب ويؤالف بين الجماعات والمعاشر المختلفة في المبادىء والآراء والعادات . وتارةً قارعاً باب ولاة الامور لاعانة طلبة العلم وبذل المال لاصلاح الجامع الازهر وما اشبه من الغايات الحميدة . وتارةً جالساً في بيتهِ وحولهُ جمهرة من تلامذتهِ ومريديهِ وهو يطرفهم بالاحاديث المفيدة ويشرح لهم بعض ما عثر عليهِ حديثاً في كتب المتقدمين او المتاخرين — كل ذلك بعد قيامهِ بحقوق وظيفة الافتاء وادارتهِ لشؤونها وقضائهِ لمهامها على ما بها من المصاعب والمتاعب

وكتبهُ الى اصدقائهِ والذين يدعونهُ الى الحفلات العمومية ويمنعهُ انحراف صحتهِ او كثرة اشغالهِ عن اجابة طلبهم آيةٌ في البلاغة وحسن السبك حتى لقد يحار من يدعوهُ بين ان يتمتع بمشاهدتهِ او ينال منهُ كتاباً بخطهِ يحفظهُ تذكاراً لهُ ويتلوهُ على الحضور فتسكرهم طلاوتهُ . وكذلك تقاريظهُ للكتب فانها كانت تدعو الى ترويجها لثقة الناس بعلمهِ وبانهُ لا يكيل الكلام جزافاً

ولم تكن مشاغلهُ الكثيرة لتقعدهُ عن السعي في مصالح الناس فيقصدهُ ذوو الحاجات وهو لا يدّخر وسعاً في اغاثتهم بما في الامكان اذا تبيّن انهم محقون في طلبهم . وكان مسموع الكلمة مقبول الشفاعة فكثر مريدوهُ على شدة المقاومة لهُ من الذين كانوا يغارون منهُ

ولقد لقي كثيرين من اعاظم الرجال في ممالك اوربا وفي بلاد الشام وتونس والجزائر وحادث اكبر فلاسفة العصر ووقف على آرائهم واوقفهم على ما يجهلونهُ من احوال الامم الشرقية فزاد اختبارًا وحُنكةً . واستفاد من ملازمة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وقرأ عليهِ دروس الحكمة الشرقية والاصول والمنطق وجاراهُ في المجاهرة بما يعتقدهُ صوابًا ولو خالف فيهِ الجمهور

وكان في قلب بلاد المشرق بلاد الخوف والرهبة والاستبداد جريء الفؤاد حر الضمير يجاهر برأيهِ ويثبت عليهِ ولا يخشى بأس متسلط ولا يهاب صولة كبير . وقد جرَّ عليهِ ثباتهُ على رأيهِ وجرأتهُ في نصرة الحق وقلة خوفهِ ورهبتهِ اهوالاً كثيرة ومحنًا عديدة ولكن لما أُبدل الاستبداد بالدستور في هذا القطر اوصلتهُ هذه المزايا الى ما وصل اليهِ من المقام والسطوة وصيرتهُ في اعتبار الجمهور الحصن المنيد الاقوياء والناصر الشديد للضعفاء والركن الوطيد للاحرار والعضد القوي للساعين في تنوير العقول والافكار

هذه بعض مزاياهُ واذا اضفنا اليها سعيهُ في سبيل الاصلاح وميلهُ الى فريق المحافظين حتى يجاري فريق المتقدمين حكمنا ان البلاد الاسلامية فقدت بفقدهِ عالمًا من اكبر علمائها ومصلحًا من اعظم رجال الاصلاح بين اهليها حرًّا هامًا مقدامًا قوَّالاً فعَّالاً فصابها بهِ اعظم مصاب وخسارتها اكبر خسارة فارقها الى رحمة ربهِ ولسانهُ ينهج بما في نفسهِ فنظم هذه الابيات قبيل ان تدركهُ الوفاة قال

ولست أُبالي ان يقال محمد ... ابلَّ ام اكتظَّت عليهِ المآتمُ
ولكن دينًا قد اردت صلاحهُ ... احاذرُ أن تقضي عليهِ العمائمُ
وللناس آمالٌ يرجُّون نيلها ... وان متُّ ماتت واضمحلت عزائمُ
فيا ربِّ ان قدرت رجعي قريبةً ... الى عالم الارواح وانفضَّ خاتمُ
فبارك على الاسلام وارزقهُ مرشدًا ... رشيدًا يضيءُ النهج والليل قاتمُ

ولسان عارفيهِ ومريديهِ وكل الذين انتفعوا بنصحهِ وارشادهِ او تمتعوا بالنفع الذي نالتهُ البلاد على يدهِ ينشدهُ قائلاً

فاذهبْ كما ذهبتْ غوادي مزنة ... اثنى عليها السهل والاوعارُ
سلكت بك العرب السبيل الى الهدى ... حتى اذا سبق الردى بك حاروا

وسنعود الى ذكر ترجمتهِ بالتفصيل بعد ان نتمكن من جمع المواد اللازمة لها